(التعريف والنقد)

أسرة الكواكبي وأشهر علمائها

د. محمد زهير البابا

آل الكواكبي أسرة قديمة قطنت في مدينة حلب، هاجر إليها أجدادهم قبل أربعة قرون. يرجع نسبهم إلى السيد إبراهيم الصفوي، وهو أحد سكان مدينة إربيل في العراق. نبغ منهم جماعة من العلماء الذين يعود إليهم الفضل بتأسيس المدرسة الكواكبية بحلب.

لقد ورد في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة أسماء أول من اشتهر من هذه الأسرة وهم:

١- أحمد بن محمد الكواكبي الحلبي (١٠٥٤-١١٢٤ هـ/ ١٦٤٤- ١٧١٢م).

عالم وفقيه، ولد ونشأ بحلب، ثم تولى إفتاء الحنفية بالقسطنطينية وتوفي فيها.

من مصنفاته: حاشية على جزء النبأ.

حاشية على إرشاد الطلب لوالده في الفروع.

حاشية على الفرائد السنية لوالده[١].

٢- حسن بن أحمد بن محمد الكواكبي (بدر الدين) الحنفي الزهراوي الحسني.

(١١٦٣ هـ/ ١٢٢٩م) - (١٧٤٩هـ - ١٨١٤م) تولى الإفتاء بحلب.

من آثاره: النفائح واللوائح من غرر المحاسن والمدائح[٢].

٣- محمد بن حسن بن أحمد الكواكبي، ولد في حلب، وأفتى وتوفي فيها (١٠١٨ — ١٠٩٦هـ/ ١٦٠٩- ١٦٨٥م)

---

(١) سلك الدر للمرادي ج (١) - ص (١٧٥ - ١٨١)، هدية العارفين للبغدادي ج (١) ص (١٦٩)، أعلام النبلاء للطباخ، ج (٦) ص (٣٨٦ - ٣٨٧).

(٢) حلية البشر للبيطار ج (١) ص(٤٩٣)، أعلام النبلاء للطباخ ج(٧) ص (١٨٧).

من آثاره: حاشية على تفسير البيضاوي – حاشية على شرح المواقف للسيد – الفوائد السمية في شرح الفوائد السنية، كلاهما في فروع الفقه الحنفي – نظم المنار في الأصول وشرحه. تفصيل القواعد في شرح المنظومية النسفِيّة – وله أيضًا نظم ونثر(١).

٤– عبد الرحمن بن أحمد بهائي بن مسعود بن عبد الرحمن آل الموقت والمشهور بالكواكبي، ويلقب بالسيد الفراتي، وهو من رجال الدين والاجتماع والسياسة .. ولد بحلب سنة (١٢٦٥هـ – ١٨٤٨م) وتوفي في القاهرة سنة (١٣٢٠هـ – ١٩٠٢م).

قرأ العلوم العربية والدينية في المدرسة الكواكبية، كان من أساتذته عبد القادر الحبال ومحمد علي الكحيل، وتلقى العلوم العصرية على خورشيد أفندي باللغتين التركية والفارسية. أسندت إليه في أول نشأته عدة مناصب في حلب، فكان المحرر العربي والمترجم التركي لجريدة الفرات الرسمية.

ثم انتدب عضوًا في لجنة امتحان المحامين، فمديرًا لمطبعة الولاية، فرئيسًا للجنة المنافع العمومية، فعضوًا دائمًا في محكمة التجارة، فرئيسًا لبلدية حلب، ورئيسًا لغرفة التجارة والزراعة والصنائع، وأنشأ جريدة ثانية سماها الشهباء. كان واسع الاطلاع في تاريخ الشرق على العموم وتاريخ المملكة العثمانية على الخصوص. ألف كتبًا كثيرة لم ينشر منها إلا كتاب طبائع الاستبداد وكتاب أم القرى .

كان بعيدًا عن التعصب الديني يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي

(١)– فهرس مخطوطات الفقه الحنفي بالقاهرة – خلاصة الأثر للمُحبّي – هدية العارفين للبغدادي – أعلام النبلاء للطباخ – فهرست الخديوية – فهرس التيمورية – فهرس الأزهرية – إيضاح المكنون للبغدادي – الأعلام للزركلي.

على السواء، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة.

لقد طبع كتاب أم القرى مرات كثيرة، فصودرت نسخ الطبعة الأولى بأمر شاهاني وقُدّمت قربانًا على مذبح الاستعباد.

عاش عبد الرحمن الكواكبي في ظل الحكم العثماني الذي ساد الأقطار العربية عدة قرون. وهو يقول في مقدمة كتابه أم القرى: «أنا الرحالة المتكني بالسيد الفراتي: إنه لما كان عهدنا هذا (وهو أوائل القرن الرابع للهجرة)، عهدًا عمّ فيه الخلل والضعف كافة المسلمين، وكان من سنة الله في خلقه أنْ جعل لكل شيء سببًا، فلابد لهذا الخلل الطارئ والضعف النازل من أسباب ظاهرة تميز سرّ القدر الخفي عن البشر، فدعت الحميّة بعض أفاضل العلماء والسراة الكتّاب السياسيين البحث عن أسباب ذلك، والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الإسلامية. فأخذوا ينشرون آراءهم في ذلك، في الجرائد الإسلامية الهندية والمصرية والسورية والتاتارية. وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء في هذا الموضوع الجليل، واتبعت أثرهم بنشر ما لاح لي في حلّ هذا المشكل العظيم».

لقد شعر الكواكبي بعجزه عن القيام بمفرده بقول أو بعمل في ظلّ الإرهاب والاستعمار العثماني، لذلك تمنّى نشوء جمعية من سراة الإسلام في مهد الهداية، أي مكة المكرمة وهي أم القرى، لأن العرب وحدهم هم أولياء هذا الأمر وهذا الدين.

وفي أوائل المحرّم سنة (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) خرج الكواكبي من إحدى مدن الفرات سالكًا الطريق البحري من إسكندرون، معرّجًا على بيروت فدمشق ثم يافا فالقدس ثم الإسكندرية فمِصر. ومنها رحل إلى السويس فالحديدة فصنعاء فعدن، ومنها قصد عُمان فالكويت. رجع الكواكبي بعد ذلك إلى البصرة فحائل ثم إلى المدينة المنورة،، وأخيرًا حل في مكة المكرمة في أوائل شهر ذي القعدة عام

١٣١٧هـ.

تَخَيَّل الكواكبي قيام جمعية تضم مجموعة من أعلام البلاد العربية والإسلامية، للتداول في أحوال المسلمين وأسباب تأخّرهم، فاختارهم من مراكش وتونس والقسطنطينية وبغجه سراي وتفليس وتبريز وكابل وكشغر وقازان وبكين ودهلي وكلكتا وليفربول – واتخذ دارًا له بمدينة مكة، وذلك لعقد الاجتماعات بصورة خفية. وأطلق على تلك الجمعية اسم (جمعية تعليم الموحدين)، ومقرُّها أم القُرى، وفيها «عقد الكواكبي اجتماعات الجمعية»، وعرض في كتابه (أم القرى) ما تخيَّله من وقائع لتلك الاجتماعات. وقد أوردتُ في هذه المقالة ماقتبسته (بتصرُّف) من هذا الكتاب، مع بعض الزيادات من غيره.

لقد عقدت هذه الجمعية اجتماعها الأول بتاريخ ١٥ من ذي القعدة سنة ١٣١٦هـ، وكان عدد أعضائها اثنين وعشرين عضوًا، وكلهم يحسنون العربية. وبعد أن تم التعارف بينهم وزعت عليهم قوائم تضم مختصر تراجم زملائهم، وفيها بيان الاسم والنسبة والصفة المذهبية والمزية الخصوصية، فكانت على الشكل الآتي: السيد الفراتي – الفاضل الشامي – البليغ القدسي – الكامل الاسكندري – العلاّمة المصري – المحدث اليمني – الحافظ البصري – العالم النجدي – المحقق المدني – الأستاذ المكي – الحكيم التونسي – المرشد الفاسي – السعيد الإنكليزي – المولى الرومي – الرياضي الكردي – المجتهد التبريزي – العارف التاتاري – الخطيب القازاني – المدقق التركي – الفقيه الأفغاني – الصاحب الهندي – الشيخ السندي – الإمام الصيني. واتفقوا أن يكون شعار الجمعية (لا نعبد إلا الله) .

لقد طلب الكواكبي منهم أن ينتخبوا رئيسًا لهم يدير الجمعية ومذاكراتها، وآخر كاتبًا يسجل المقررات. فأجابه العلامة المصري: إن معرفة الإخوان بعضهم ببعض جديدة العهد، وإنك أشملهم معرفة بهم، فأنا أترك الانتخاب لك، فأجمع

الكل على ذلك. فاختار الكواكبي الأستاذ المكي للرئاسة واختار لنفسه أمانة الجلسة.

استهل الرئيس بعدها الكلام حامدًا الله الذي أمر بالتعاون على البر والتقوى، وألقى السلام على رسوله محمد ﷺ القائل (المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا) ثم قال: أيها السادة الكرام: (كلنا يعلم سبب اجتماعنا هذا من سابق مفاوضات أخينا السيد الفراتي، الذي أجبنا دعوته لهذه الجمعية، ولا أجد حاجة لتنشيط همتكم، وأذكِّركم خلاصةَ تاريخ هذه المسألة فأقول (إن مسألة تقهقر الإسلام بنت ألف عام أو أكثر .. لقد فاقتنا بعض الأمم في العلوم والفنون ... ولم يزل المسلمون في سباتهم إلى أن استولى الشلل على كل أطراف جسم المملكة الإسلامية وقرب الخطر من القلب (أعني جزيرة العرب).. لذلك ينبغي إنذار الأمة بسوء العاقبة المحدقة بها.. وتوجيه اللوم والتبعة على الأمراء والعلماء لتقاعدهم عن استعمال نفوذهم للوصول إلى الدواء الشافي بدون رياء ولا استحياء ولا مراعاة ذوق عامة أو عتاة. ويجب ألا نيأس من روح الله، وألاّ نتوهم أننا أمة ميتة فلا تُرجى حياتنا. كما لا إصابة في قول من قال: إذا نزل الضعف في دولة أو أمة لا يرتفع، فهؤلاء الرومان واليونان والأمريكان والطليان واليابان، كلها أمم أمثالنا استرجعت نشأتها بعد تمام الضعف.. فعلينا أن نثق بعناية الله، الذي لا يعبد سواه، وبهذا الدين المبين الذي نشر لواء عزِّه على العالمين، دينًا حنيفًا متينًا محكمًا لايفضله دين من الأديان، في الحكمة والنظام ورسوخ البنيان. ومن المأمول أن تكون الحكومات الإسلامية راضية بهذه الجمعية حامية لها ولو بعد حين، لأن وظيفتها الأساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهالة وترقى بها في معارج المعارف متباعدة عن كل صبغة سياسية – وإنني أختم اجتماعنا اليوم بذكر المسائل الأساسية التي ستدور عليها مذاكرات جمعيتنا وهي:

١- تشخيص، داء الفتور المستولي على الأمة تشخيصًا سياسيًا. ٢- معرفة جراثيم هذا الداء ودوائه . ٣- ماهية الإسلام وكيف يكون التدين. ٤- ماهو الشرك الخفي وكيف نقاوم البدع. ٥- تحرير قانون لتأسيس جمعية تعليمية.

الاجتماع الثاني للجمعية: انعقد صباح يوم الأربعاء السابع عشر من ذي القعدة سنة ١٣١٦هـ.

افتتح الرئيس الجلسة وقال: إننا نجد الباحثين في الحالة النازلة بالمسلمين يشبهونها بالداء الدفين أو المزمن. وإنني أجد من الصواب إطلاق اسم الفتور العام عليه أليق، لأنه يشمل كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ولا يسلم منه إلا أفراد، حتى إننا لانجد إقليمين أو قريتين متجاورتين إلا ونجد المسلمين أقل من جيرانهم نشاطًا وانتظامًا في كل فن أو صنعة، فهل الإسلام والصنعة لايجتمعان؟ لقد وافق الفاضل الشامي على رأي الرئيس، أما الصاحب الهندي فقال:

لقد خبرت البلاد وأحوال العباد لأنني جوَّال، فوجدت أن الفتور العام كائن أواسط الجزيرة العربية، وكذلك في مواقع أخرى حيث يجاور المسلمون أهل النِّحل الوثنية، كبقايا الصابئة حول الدجلة، وكذلك في الهند حيث تنتشر البوذية. بناءً على ذلك ثبت عندي مايقرره الأخلاقيون (أي علماء الاجتماع) من أنه لا يصح وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقًا، بل كل إنسان له دين يدين به، إما صحيح أو فاسد.

توجه الرئيس بعد ذلك إلى جميع الحاضرين فقال: إني أجلّكم أيها السادة الأفاضل وأرغب أن أنبه أفكاركم لأمر لابد هو قائم في نفوسكم جميعًا، ألا وهو عدم الإصرار على الرأي الذاتي، واعتبار كل مايقوله ويبديه كل منا إن هو إلا خاطر سنح له: فربما كان صوابًا أو خطأ، فما أحد منا ملزم برأي يبديه ولا هو

بملوم عليه، فإذا أعجبنا رأي المتكلم منا أثناء خطابه إعجابًا قويًا فلا بأس أن نجهر بلفظ (مرحى).

ثم تكلم الحكيم التونسي فقال: إن غيرنا من الأقوام في جرمانيا مثلاً سادتهم حكومات مطلقة تختلف عنهم مذهبيًا وسياسيًا، فلم يشملهم الفتور بوجه عام، لذلك لابد من وجود سبب آخر لوجود الفتور عند المسلمين. وإنني أتصور أن بلاءنا ناجم عن تأصل الجهل في غالب أمرائنا – فأجاب المولى الرومي: إن تحميل التبعة على الأمراء فقط غير سديد، لأن أمراءنا هم لفيف منا من كل وجه،. وعندي أن البلية هي فقدان الحرية. فأهل القسطنطينية حُرِّم عليهم التلفظ بكلمات الحرية والجمعية والوطنية، ومراد ورشاد، وخلافة وخلع. وفي هذه الحالة تسأم الأمة حياتها ويستولي عليها الفتور. فأجاب المجتهد التبريزي: إن الفتور لم يزل في ازدياد، ويلوح لي أن انحطاطنا من أنفسنا، إذ كنا خير أمة أخرجت للناس نعبد الله ونخضع له ونطيعه، وأمرنا شورى بيننا نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون على الإثم والعدوان، فتركنا ذلك كله ماصعب منه وما هان.

أجابه المرشد الفاسي: إننا كنا على عهد السلف الصالح، شريعتنا سمحة واضحة المسالك، فكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة كل مسلم ومسلمة. ولما اتسعت البلاد وازداد عدد العباد أصبح لدينا محتسبون ذوو بأس ونفاق، أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب وبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن السبب الأعظم لمحنتنا هو انحلال الرابطة الدينية، لأن مبنى ديننا ينص على أن الولاء فيه لعامة المسلمين، فلا يختص بحفظ الرابطة والسيطرة على الشؤون

العمومية إلا الإمام إن وجد، وإلا فإن الأمر يبقى فوضى بين الجميع. فأجابه (المحقق المدني) إن العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله. فبعض ضعيفي العلم وفاقدي العزم تطلعوا إلى هذه المنزلة وحسدوا أهلها المتعالين عنهم فلجؤوا للمزاحمة والظهور بمظهر العلماء العظماء مرتدين أفخر الثياب، أو سلكوا سلوك الزاهدين المتصوفين.

لقد نال هؤلاء المدلسون بسحرهم نفوذًا عظيمًا أفسدوا به المجتمع، إذ جعلوا كثيرًا من المدارس تكايا للبطالين، وحولوا كثيرًا من الجوامع مجتمعًا للطبّالين الذين تَرَنَجّ من دويّ طبولهم قلوب المتوهمين فيتلبَّسُهم نوع من الخبل يظنونه حالة من الخشوع.

فأجاب (المولى الرومي) إن كل الديانات معرضة بالتمادي لأنواع من التشويش والفساد، ولكن لاتفقد من أهلها حكماء ذوي عزم ونشاط ينبهون الناس ويرفعون الالتباس ... وعندي أن داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين، وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهال المتعممين.

الاجتماع الثالث (يوم الخميس الثامن عشر من ذي القعدة سنة ١٣١٦)

أمر الأستاذ الرئيس الأستاذ الفراتي أن يقرأ ضبط الجلسة السابقة فلما وصل لآخره قام (المولى الرومي) فأفاض بالكلام عن العلماء المقربين من الأمراء وارتباط القضاء والإمضاء بهم، فقال إن هؤلاء المقيمين في البلاد العثمانية قد اتخذوا لأنفسهم قانونًا أسموه (طريق العلماء) وجعلوا فيه من الأصول ما أَنتج منذ قرنين إلى الآن أن يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال حتى للأميين والأطفال، واتخذوا لأجسامهم لباسًا اقتبسوه من كهنة الروم وهو محلى بكثير من الفضة والذهب. وكان الخطيب في بعض جوامع السلاطين يستوي على المنبر، ويقول اتقوا الله وعلى رأسه وصدره ومنكبيه هذا اللباس المنكر. وأصبح التدريس والإرشاد والوعظ

والخطابة والأمانة كالعروس تباع وتشرى وتوهب وتورث.

لقد استأثر الجهلاء الفاسقون بمزايا العلماء العاملين واغتصبوا أرزاقهم من بيت المال وأوقاف الأسلاف فقلَّت الرغبة في تحصيل العلوم؛ ففسد العلم وقل أهله.

ثم قام (الرياضي الكردي) بعد ذلك فقال إن هذا الداء خاص ببعض الدول الإسلامية، فلا يجوز اعتباره سببًا للفتور العام الذي نبحث فيه، وعندي أن السبب العام هو أن علماءنا اقتصروا على تدريس اللغة العربية والفقه وشيء من الحساب والمنطق، وابتعدوا عن العلوم الحيوية النافعة.

وقال (الفقيه الأفغاني) إن الداء العام فيما أرى هو الفقر، قائد كل شرٍّ ورائد كل نحس، منه تشتت آرائنا حتى في ديننا، ولا ينقصنا عن الأمم الحية غير القوة المالية التي أصبحت لا تُحصَّل إلا بالعلوم.

فأجاب (السعيد الإنكليزي) إن المسلمين، من حيث مجموعهم أغنياء لايُعوزهم المال اللازم للتدرج بالعلوم، ذلك لأن إيفاء الكفارات وفريضة الزكاة على مالكي النصاب يوفّران للفقراء عيشة مرضية ودراسة مجدية.

وقال الإمام الصيني إني أرى أن السبب الأكبر للفتور هو تكبر الأمراء، وميلهم للعلماء المتملقين المنافقين الذي يحرفون أحكام الدين ليوفقوها على أهوائهم. فماذا يرجى من علماء يشترون دينهم بدنياهم ويقبلون يد الأمير كتقبيل العامة أيديهم. لقد أصبح الاستبداد في الأمراء شيمة وتكبّرًا وترك أهل الحل والعقد الاحتساب جهلاً وجبنًا فسادت الفوضى في الدين والدنيا. وإننا نرجو أن يتدارك الله الأمر بعنايته فيبعث لهم رسولاً يجدد دينهم أو حكماء يصلحون مافسد من إيمانهم، كما حصل ذلك في الأمم الماضية كعاد وثمود، وكالسريان وإسرائيل وكنعان وإسماعيل.

وعندئذ قام الأستاذ الرئيس وقال: إني أرى أن البحث في أعراض الداء وأسبابه وجراثيمه، وما هو الدواء وكيف يستعمل، قد نضح أو كاد، وقد قررنا أن يكون بحثنا الآتي هو (ماهية الإسلام) وسيكون تقرير أخينا العالم النجدي نعم المدخل.

الاجتماع الرابع (يوم السبت العشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦هـ(

انتظمت الجمعية صباح هذا اليوم وأذن الأستاذ الرئيس بالشروع في البحث.

فقال العالم النجدي إن الإنسان مفطور على الشعور بوجود قوة مهيمنة عاقلة تتصرف في الكائنات، فبعضهم أطلق عليها اسم الطبيعة، والراشدون والمهتدون من الناس يعبرون عنها بلفظ (الله). ويختلف الشعور وتوصيف هذه القوة حسب مراتب الإدراك والإيمان فيهم، وكذلك باختلاف الزمان والمكان: لقد ظهر الأنبياء المرسلون الذين أخرجوا الناس من بحر الأوهام إلى ساحل الحكمة ومن ظلمات الضلال إلى نور الهداية. ومن أمهات قواعد ديننا أن نعتقد أن محمدًا ﷺ قد أدى رسالته بأقواله وأفعاله. وكان للقرآن الكريم الذي أنزل عليه أثر كبير في إيمان قريش لما فيه من آيات بينات ونهي عن الإثم والعدوان ومعصية الرسول. لقد حطمت قريش أصنامها واستبدلت بها القبور الدوارس وبنوا المساجد وذبحوا القرابين وفاءً للنذور وشدوا الرحال لقضاء العمرة والحج.

ومنهم جماعة لم يرضوا بالشرع المبين فابتدعوا أحكامًا سموها علم الباطن أو علم التصوف لم يعرفها الصحابة ولا التابعون. ومنهم من جانب الصواب في تفسير بعض آيات القرآن، ومايعلم تأويلها إلا الله. ومنهم من اخترع عبادات لم يأت بها الإسلام، فكأن الله تعالى قد ترك لنا ديننا ناقصًا فأكملوه، أو كأنّه جل شأنه لم يُنزِل يوم حجة الوداع ﴿اليوم أكملت لكم دينكم ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾.

ومنهم جماعة اتخذوا دين الله لهوًا ولعبًا فجعلوا منه التغني والرقص ونقر الدفوف ودق الطبول، ولبس الأخضر والأحمر واللعب بالنار والسلاح والأفاعي، يخدعون بذلك البسطاء من الناس.

لقد ظهر بين المسلمين علماء تشددوا بأحكام لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم أو الحديث الشريف، ويعتبر ذلك ورعًا وتقوى ومزيد علمٍ واعتناء بالدين فيميل الناس لتقليده ويرجّحون فتواه على غيره .

لقد ورد في القرآن الكريم آيات تنهى عن التشدد في الدين منها قوله عز وجل ﴿وما جعلنا عليكم في الدين من حرج﴾ وقوله ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ وقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتحرّموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ وفي نهاية الحديث قال الأستاذ الرئيس.

إن أخانا العالم النجدي يعلم أن ما أفاض به علينا لا غبار عليه بالنظر إلى قواعد الدين وواقع الحال، وكفى بما استشهد به من الآيات البينات براهين دامغة.

الاجتماع الخامس (يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هـ.

قال الأستاذ الرئيس: سنبحث بعد يومين في وضع قانون للجمعية الدائمة، وإنني أرى أن نفوّض إلى لجنة منّا، من الذين سبق لهم دخول في جمعيات علمية، ولاسيما الغربية المعروفة باسم (أكاديميات) لتنظم لنا هذه اللجنة صورة قانون نضعها تحت البحث في الجمعية. وإنني أكلف أخانا السيد الفراتي ليقوم بكتابتها، وأخانا السعيد الإنكليزي ليفيد اللجنة بما يعلمه عن الأكاديميات وعن جمعيات ليفربول، بالإضافة لأخينا العلامة المصري والصاحب الهندي والمدقق التركي، على أن يرأسهم الأخير لأنه أكبرهم سنًا.

قام عندئذ السعيد الإنكليزي فقال: نحن مسلمي (ليفربول) حديثو عهد بالإسلام. ولدينا الرغبة للاهتداء بما ورد في الكتاب والسنة، لأن أكثرنا والحمد لله

قد اعتنق الإسلام منتقلين إليه من البروتستانتية. ولنا جمعية منتظمة لها شعبتان الأولى في أمريكا والأخرى في جنوب افريقيا. ونحن راغبون أن نسعى في الدعوة للدين الإسلامي، فأجابه الأستاذ الرئيس : إسأل من شئت وخاطب من أردت فالإخوان كلهم علماء وحكماء .

فقال (السعيد الانكليزي) مخاطبًا العالم النجدي: إنك يا مولاي قد تصوّرت في مقدمة خطابك في التوحيد من هو المسلم، وألزمته العمل بالكتاب والسنة. فأرجو أن تعرفني أولاً ماهو الكتاب وما هي السنة وما هو السبب في وجود المذاهب واختلافها.

فقال العالم النجدي، أما الكتاب فهو القرآن الذي أنزل هدى ورحمة للناس، وأما السنة فهي ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام أو ما فعله أو أقرَّه. وظهرت المذاهب في الفرائض والواجبات والعبادات فقال (السعيد الانكليزي) لا يشك أحد في أنه لم تبلغ أمة من الأمم شأو المسلمين في عنايتهم بحفظ القرآن وجمع أحاديث الرسول، ولكن هنالك اختلافات مهمة بين العلماء الأئمة فأرجو أن تبين لي ماهو سبب التشتت في الأحكام فأجابه (العالم النجدي) إن الاختلافات في الشريعة ليست في الأصول، بل في فروع تلك الأصول وفي بعض الأحكام التي ليست لها في القرآن أو السنة نصوص صريحة.

الاجتماع السادس (يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦).

قال الأستاذ الرئيس مخاطبًا الشيخ السندي: إنك يا مولانا لم تشاركنا في البحث إلى الآن، بنبذة من معلوماتك تنور بها أفكارنا، وأن لا تحتشم من التلعثم في بعض التعبيرات لغلبة العجمة عليك، فإن لك أسوة بالفيروزآبادي. فقال الشيخ السندي: إنكم أيها السادة الإخوان سراة أفاضل قد أفدتم وأجدتم، ولم تتركوا لقائل من مجال ولا لمثلي غير الإصغاء. إنني من خلفاء الطريقة النقشبندية،

أخذتها عن والدي الذي نقلها من الأقاليم الشرقية والجنوبية في الهند. لقد صرت مرجعًا في هذه الطريقة بعد والدي. وقمت بسياحات في إيالات كاشغر وقازان حتى سيبريا، ومن المعلوم أن طريقتنا مؤسسة على الذكر القلبي، وقراءة الورد. وقد فتح الله عليَّ ببركة جمعيتنا هذه، فَهْمَ أسباب ميل المسلمين للانتساب إلى إحدى الطرائق الصوفية، ذلك أن السادة الفقهاء من الحنفية والشافعية قد ضيقوا على المسلمين في العبادات وأكثروا الأحكام في المعاملات مما شوش الإفتاء والقضاء. وصار المسلم لا يرى لنفسه فرجًا إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان الذين يهونون عليه الدين كل تهوين.

الاجتماع السابع (يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦)

قال الأستاذ الرئيس مخاطبًا السيد الفراتي: إن الجمعية تنتظر منك، فوق همتك في عقدها، وقيامك بمهمة تحرير محضر جلساتها، أن تبين رأيك في سبب الفتور الكائن بين الممالك والإمارات الإسلامية.

فقام السيد الفراتي وقال: لهذا الفتور مجموعة كبيرة من الأسباب، ومن الممكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

أ– أسباب دينية: وأهمها:

١– تشديد الفقهاء المتأخرين للدين خلافًا للسلف.

٢– الاسترسال في الجدل والتخالف في العقائد الدينية وفروع أحكام الدين.

٣– التعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف.

٤– تطرق الشرك الخفي إلى عقائد العامة.

ب– الأسباب السياسية:

١– تطرق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسية.

٢– حرمان الأمة من حرية القول والعمل وفقدان العدل والأمن والمساواة في

الحقوق.

٣– انغماس الأمراء في الترف والاستبداد وتمسكهم بالسياسة الخرقاء.

٤– حرمان العلماء وطلاب العلم من الرزق والتكريم.

ج– الأسباب الأخلاقية:

١– فساد التعليم والإرشاد والتربية الدينية والأخلاقية.

٢– غلبة التزلف والتملق، وتفضيل الارتزاق بالجندية والخدمة الأميرية.

٣– إهمال طلب الحقوق العامة جبنًا وخوفًا، وتوهمًا أن علم الدين قائم في العمائم .

لقد أفاض السيد الفراتي بذكر موارد الخلل في سياسة وإدارة الدولة العثمانية.

١– تنويع القوانين الحقوقية وتشويش القضاء في الأحوال المتماثلة.

٢– التمسك بأصول الإدارة المركزية، مع بعد الأطراف عن العاصمة.

٣– التزام المخالفة الجنسية في استخدام العمال بقصد تعسر التفاهم بين العمال والأهالي.

٤– التزام تولية بعض المناصب، كالمشيخة الإسلامية، والإمارة العسكرية لمن يكون مكروهًا من العلماء أو من الجند بقصد ألا يتفق الرئيس والمرؤوس على أي أمر مهم.

الاجتماع الثامن (يوم الخميس الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣٢٦هـ).

طلب الرئيس من السيد الفراتي أن يتمم بحثه السابق فقال:

إن من أعظم أسباب الفتور (التأخر) في المسلمين هو عدم معرفتهم كيف يحصل انتظام المعيشة، لأنه ليس فيهم من يرشدهم. إن جهل النساء يفسد الأولاد في مرحلتي الطفولة والصِّبا. ومن الغرور توهمنا أن شؤون الحياة سهلة بسيطة، فنظن أن العلم بالشيء إجمالاً ونظريًا بدون تمرن عليه يكفي للعمل به. فيقدم أحدنا على

ممارسة العمل في وظيفة أو مهنة دون سابق تمرين أو خبرة. وعلى الإنسان أن يرتب أوقاته حسب أشغاله، ويرتب أشغاله حسب وقته، كما عليه أيضًا أن يقدّر نفقاته على نسبة كسبه. وعليه أن يربّي أولاده ذكورًا وإناثًا على صورة أن كلاً منهم متى بلغ أشده يمكنه أن يعتمد على كسبه الذاتي.

إن انحلال الأخلاق يعتبر من أسوأ الآفات الاجتماعية، وهو يشمل الذكور والإناث. لقد نصت الشريعة الإسلامية على لزوم وجود الكفاءة، وأكثر الأئمة أغفلوا لزوم تحري الكفاءة في المرأة، كي لا تملك زوجها بفخارها وتحكمها — وربما كان أكبر سبب لانحلال أخلاق بعض الرجال أتاهم من جهة أمهات أو زوجات ناقصات عقل ودين. ومن الواجب على الآباء أن يسعوا لتربية أبناء يفخرون بدينهم ويحرصون على القيام بواجباتهم الدينية والدنيوية، يؤمنون بالقضاء والقدر، يحبون وطنهم ويسعون لخيره وأمنه.

قام الأستاذ الرئيس عندئذ وقال: إن مباحث الجمعية قد استوفت حقها. وقد أعطاني أخونا المدقق التركي رئيس لجنة القانون السانحة التي وضعتها اللجنة مطبوعة في نسخ وزعت على الأعضاء لكي يطلعوا عليها ويدققوا فيها قبل الاجتماع غدًا.

الاجتماع التاسع (يوم السبت السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦هـ(

افتتح الرئيس صباح هذا اليوم الاجتماع فقال: لنقرأ الآن قضايا القانون فقرة فقرة، حتى إذا كان لأحد الإخوان ملاحظة على بعض الفقرات فليبدها، وبعد المناقشة تقبل أو تعدل أو ترد. وقد تم الأمر على هذه الصورة بحيث استكمل القانون جميع فقراته.

الاجتماع العاشر (يوم الاثنين التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦هـ(

في صباح هذا اليوم انتظمت الجمعية بكامل أعضائها في مكة المكرمة

واتخذت القرارات الآتية:

١– يطلق على الجمعية اسم (جمعية أم القرى)

٢– تتشكل الجمعية من مئة عنصر منهم عشرة عاملون وعشرة مستشارون وثمانون فخريون، ويرتبط بالجمعية أعضاء محتسبون لا يتعين عددهم.

٣– يشترط في الأعضاء العاملين والمستشارين – أ) القدرة على التكلم والكتابة بالعربية. – ب) الدوام أربع ساعات في نادي الجمعية عدا الجمعة والأعياد. ج) حضور المستشارين يومًا واحدًا في كل أسبوع.

٤– يشترط في الأعضاء الفخريين القدرة على الكتابة بإحدى اللغات العربية – التركية – الفارسية – الأُردية، ومراسلة الجمعية بإحدى هذه اللغات مرة في كل شهر.

٥– مركز الجمعية في مكة الكرمة ولها شعب في جميع عواصم الدول الإسلامية.

٦– الجمعية لا تتدخل في الشؤون السياسية ولا المذاهب والأديان فيما عدا إرشادات تتعلق بأصول التعليم وتعميمه.

٧– تتكفل الجمعية بإعاشة عدد معين من أصحاب المزايا العلمية والأيتام.

مصدر تمويل الجمعية: تعتمد الجمعية في الحصول على نفقاتها على جهتين فقط:

أولاً) ربح المطبوعات التي يقوم بتأليفها الأعضاء.

ثانيًا) مايتكرم به أغنياء التجار.

كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

للسيد عبد الرحمن الكواكبي

١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م – ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م

يقول الكواكبي في مقدمة كتابه:

«إنني في سنة ١٣١٨هـ وجدت زائرًا في مصر على عهد عزيزها ومعزّها

حضرة سميّ عمّ النبي العبّاس الثاني، الناشر لواء الحرية على أكناف ملكه. فنشرت في بعض الصحف الغرّاء أبحاثًا علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. منها مادرسته ومنها مااقتبسته، غير قاصد بها ظالمًا بعينه ولا حكومة مخصّصة. إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين. عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه، فلا يعتبون على الأغيار، ولا على الأقدار. وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات. ثم كلّفني بعض الأعزاء جمعَ شمل تلك الأبحاث تعميمًا للفائدة. فأضفت إليها بعض زيادات وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب، وجعلته هدية مني للناشئة العربية المباركة الأبيّة، المعقودة آمال الأمة بيُمن نواصيهم...»).

ثم انتقل بعد ذلك للكلام على فنون السياسة ومباحثها فقال إن علماء المسلمين هم الذين ألّفوا في هذا الفن ممزوجًا بالأخلاق، ومن أشهرهم الرازي والطوسي والغزالي والعلائي، ومنهم من مزج السياسة بالأدب كالمعرّي والمتنبي، ومنهم من مزج السياسة بالتاريخ، كابن خلدون وابن بطوطة.

ويقول الكواكبي بعد ذلك إن المحررين السياسيين من العرب قد كثر عددهم، وأودّ أن أذكرهم بموضوع هو من أهم المباحث السياسية، وقلّ من طرق بابه منهم، وهو بحث الاستبداد. يشمل هذا البحث تعريفَ الاستبداد، سببه وأعراضه، تشخيصه ودواءَه.

الاستبداد لغة هو اقتصار المرء على رأي نفسه فيما تنبغي الاستشارة فيه. وفي اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة. وعند الكلام على الاستبداد يجب بيان أسبابه وأعراضه والطرق المؤدية لتعديله أو إلغائه.

جاء الكواكبي بأمثلة كثيرة على أشكال الاستبداد، والعوامل والأفراد

والشعوب الذين طبّقوه على الأفراد أو الشعوب المستضعفة. كما بيّن تأثير الديانات ورجال الدين والحكام في فرض الاستبداد، أو رفعه عن الشعوب والأفراد خلال العصور الغابرة والوقت الحاضر.

فقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تمنع الاستبداد بالرأي منها قوله تعالى ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وكذلك قوله في وصف المؤمنين ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ .

ويقول الكواكبي إن المدقق في تاريخ الإسلام يجد المستبدين والعلماء المنافقين الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره ويحفظ للمسلمين كتابه الكريم ، الذي هو شمس العلوم وكنز الحكم، من أن تمسه يد التحريف، فقال عز وجل: ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذِّكْر وإنّا له لحافظون﴾.

ويضيف الكواكبي إلى ذلك قوله: «مع أنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق، وحرية الرأي والتأليف، كما أطلق لأهل العلم والتأويل، لرأوا في ألوف من آيات القرآن الكريم الألوف من آيات الإعجاز ... منها قوله عزّ وجل: ﴿إن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما﴾ وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة اعتمادا على ماجاء في القرآن ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها...﴾ إلى أن يقول: ﴿وكلٌ في فلك يسبحون﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، والتي تحقق مكتشفات في علم الهيئة ونواميس الطبيعة. ويمكن القول إجمالاً إن المستبد لايخاف من العلوم كلها بل من تلك التي تنير العقول وتوسع أفق التفكير. ولذلك لا يحب المستبد وجه عالم ذكي، إلا إذا كان متصاغرًا متملقًا.

إن لغة الأقوام يمكن أن يستدل بها على عَراقتها في الاستبداد والحرية، ويتحقق ذلك بفحص لغتها، فإذا كانت كثيرة ألفاظ التعظيم، غنية في عبارات الخضوع كالفارسية فهي أمة عانت الاضطهاد والاستبداد، أما إذا كانت فقيرة في هذا الباب فذلك يدل على تمتعها بالحرية كالأمة العربية.

والخلاصة إن الاستبداد والعلم ضدان، فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم، وحصر الرعية في حالك الجهل. وغالبًا مانجد أن رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم. فالأنبياء العظام وكثير من العلماء، والأدباء النبلاء تشتتوا في البلاد وماتوا غرباء.

إن الحاكم المستبد الحريص على ظلم الناس يحتاج إلى عصابة من الأزلام تعينه وتحميه في عمله. وهو لا يجهل أن كثيرًا من الناس أصبحوا أعداءً لظلمه، لذلك يتخذ أعوانًا له من حثالة البشر ليردوا عنه كيد أعدائه. ولكن هؤلاء الأعوان كثيرًا ماينقلبوا عليه لينتزعوا منه السلطة ويقضوا عليه. فالملك المستبد يتخذ من بعض رعاياه المتملقين وزراء ليساعدوه في السيطرة على شعبه. ويذْكر التاريخ أن الزمان أوجد بعض الرؤساء والوزراء والحكام الذين ندموا على ما ارتكبوا من آثام، فتابوا وسعوا للتعويض على من آذوهم، أفرادًا كانوا أو جماعات عن طريق الوساطة أو الجاه أو المال.

ويصحّ في وصف المال أن يقال: القوّة مال، والعقل مال، والاقتصاد مال، والدين مال، والجاه مال، والجمال مال، والثبات مال، الحاصل كل ما ينتفع الإنسان بثمرته فهو مال، وكل هذه الأسباب وثمراتها قادرة على إفساد الإنسان وجالبة إليه الوبال.

لقد اقتسم النساء والرجال أعمال الحياة على وجه الأرض. فنصيب النساء هيّن الأشغال بدعوى الضعف، واعتبرت الشجاعة والكرم صفتين، محمودتين في الرجال. لقد تقاسم الرجال مشاق الحياة بنسب متفاوتة، فرجال السياسة والأديان يتمتعون بالرفه والإسراف، ولا يفكرون في ملايين الفقراء، أما أهل الصنائع النفيسةوالكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون فيعيش أحدهم بمثل مايعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصناع والزراع، وهذه القسمة المتفاوتة بين آدم

وحواء، وأيضًا النسبة المتباعدة بين أصحاب الحِرَف جاء بها الاستبداد السياسي.

يعتبر التموّل، أي ادخار المال، طبيعة تتصف بها بعض الحيوانات الضعيفة كالنمل والنحل. كما أن الإنسان تطبّع على التموّل لدواعي الحاجة المحققة أو المتوهمة، خاصة عند سكان الأراضي المعرضّة للقحط في بعض السنين.. وهنالك شرط ثالث لإحراز التموّل هو ألا يتجاوز المال قدر الحاجة، للتساوي والتقارب بين الناس من الناحية المالية.

إن الاستبداد يجعل المال الموجود في أيدي الناس عرضة للسلب غصبًا أو بحجة باطلة، كما يجعله عرضة للسلب من قبل اللصوص والمحتالين. لذلك يضطر الناس زمن الاستبداد إلى إخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة..

إن امتلاك المال الكثير يحدث همًا وبلاءً على قلب صاحبه، لذلك نجد أهل الفضيلة ينظرون إلى المال الزائد عن الحاجة كأنه بلاء في بلاء، أي إنه بلاء من حيث التعب في تحصيله، وبلاء من حيث القلق على حفظه.

ويؤثر الاستبداد في الميول الطبيعية والأخلاق الحسنة فيضعفها أو يفسدها. ويجعل الإنسان حاقدًا على قومه، فاقدًا لحب وطنه. الاستبداد يسلب الإنسان راحة الفكر فتمرض العقول ويختل الشعور.

تأثير الاستبداد في فساد الأخلاق:

لقد اتفق الحكماء الذين أكرمهم الله أن إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلى الحكمة البالغة والعزم القوي؛ وأن فساد الأخلاق يَفْشو من المستبد وأعوانه من الوزراء إلى الفراشين، ومن القواد إلى الأنفار. ومن هؤلاء يدخل فساد الأخلاق بالعدوى إلى كافة البيوت، لاسيما بيوت الطبقات العليا، التي تتمثل بها الطبقات السفلى.

لقد سلك الأنبياء عليهم السلام في إنقاذ الأمم من شقائها مسلك الابتداء

أولاً بِحَضِّ العقول على عدم تعظيم غير الله والإذعان لسواه. ثم هدوا في تعريف الإنسان كيف يملك إرادته أي حريته في أفكاره واختياره في أعماله. فَهَدُّوا بذلك حصون الاستبداد ، وسدوا منبع الفساد.

لقد اتبّع الحكماء السياسيون الأقدمون الأنبياء عليهم السلام في سلوك هذا الطريق بالابتداء من المنطلق الديني، ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع.

كان العلم عند قدماء المصريين والآشوريين منحصرًا في خدمة الدين، وكان محتكرًا في أبناء الأشراف عند الغرناطيين والرومان، ومخصصًا في إعداد الشبان المنتخبين عند الهنود واليونان.

لقد أطلق العرب بعد الإسلام حرية العلم لكل راغب، وهذا ما ساعد على انتشاره في جميع طبقات الأمم التي اعتنقت الإسلام، ثم انتشر بعد ذلك في أوربا عن طريق ترجمة المؤلفات العربية.

الاستبداد والتربية: التربية علم وعمل، وهذا يعني ضرورة وجود طبقة من المتعلمين يُلقى على عاتقها تعليم مختلف طبقات الشعب العلم والأخلاق الحسنة. ثم إنه من الضروري وجود مؤلفات في علم الأخلاق، سهلة الفهم والحفظ ليستفيد منها الجميع.

إن حب الوطن وحب أفراد العائلة بعضهم لبعض، وإغاثة الأسير والفقير والمظلوم، هي من الواجبات الاجتماعية، كما أن كره الخداع والنفاق والتذلل هي من أسس التربية الحسنة.

الاستبداد والترقي: الترقي هو حركة الحياة ويقابله الهبوط وهو حركة الانحلال والموت. فإذا رأينا في أمة آثار حركة الترقي هي الغالبة على الأفراد حكمنا لها بالحياة، ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت.

إن الترقي الحيوي الذي يجب أن يسعى وراءه الإنسان هو أولاً الترقي في الجسم صحةً وقوةً، ثم الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة، ثم الترقي بالعلم والمال، ثم الترقي بالملكات والخصال.

كان العالم والمفكر الوطني عبد الرحمن الكواكبي شديد التألم بسبب ما لاقاه الشعب العربي من خضوع واستسلام في ظل الحكم العثماني والاستعمار الأجنبي لذلك يلوم قومه، وكان مما قال:

«يا قوم نازعني والله الشعور بالألم، هل موقفي هذا في جمعٍ حيٍّ أحيّيه بالسلام، أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة».

«يا قوم لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين، بل أنتم بين بين في برزخ يصح تشبيهه بالنوم».

«يا قوم هداكم الله ماهذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم أفلا تنظرون».

«ياقوم وقاكم الله من الشر، أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع، مبتلون بداء التقليد في كل فكر وعمل، وبداء الحرص على كل عتيق.. فلماذا تقلدون أجدادكم في الخرافات ولا تقلدونهم في محامدهم.. يا قوم تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ماتصرفون على التدخين، وتشكون من الحكام وهم اليوم منكم ولا تسعون في إصلاحهم. ياقوم كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعًا لله، وأنتم تنحنون لتقبيل يد رجلٍ من المنعمين».

الاستبداد والتخلص منه: قد أتمَّ الكواكبي مقالته في هذا الباب فقال:

عاش الإنسان دهرًا طويلاً في حالة طبيعية بطونًا وقبائل متنقلة يسوسها الشيوخ الأكثر خبرة ويقودها الشباب الأقوى بنية، تحت رئاسة أمير ينفذ مايقررون. وكانوا يتبعون نظامًا إداريًا بسيطًا وقواعد قضائية قليلة رائدها العدالة الوجدانية.

وهنالك قسم من البشر أرادوا بسبب ظروف قاهرة أن يقطنوا في أكواخ لم تلبث أن تحولت إلى قرى ثم إلى مدن متفاوتة بالمساحة وبعدد السكان.

لقد تنوعت أشكال الحكومات في تلك البلاد بسبب تغلب أحزاب الاجتهاد أو أحزاب الاستبداد، كما أن تقرير شكل الحكومة يعتبر أعظم وأقدم مشكلة في تاريخ الأمم.

لقد عرَّف الكواكبي الاستبداد فيما سبق فقال: الاستبداد هو الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة ومصونة بقانون نافذ الحكم ولا عبرة بيمين مَن يتولى السلطة أيًا كان، ولا بعهده على مراعاة الدين والتقوى والحق والشرف والعدالة.. وما هي في الحقيقة إلا كلام فارغ، لأن المجرم (المستبد) لا يعدم تأويلاً، ولأن من طبيعة القوة الاعتساف والظلم.

ترجمة حياة محمد صلاح الدين الكواكبي

محمد صلاح الدين الكواكبي (ابن مسعود أبو السعود الكواكبي. عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. انتخب سنة ١٩٥٣، وعضو محكمة التمييز، (عُيّن سنة ١٣٤١هـ لغاية ١٣٤٧هـ(، حلبي المولد سنة ١٩٠١م.

درس العلوم الابتدائية في مدرسة تركية ابتدائية في الآستانة، ونال شهادتها بدرجة ممتازة، والعلوم الرشدية في بشكطاش في المدرسة الرشدية الرسمية في الآستانة. ومنها انتقل إلى الرشدية الملكية التركية بحلب لتحول وظيفة والده إلى حلب ونال شهادتها بدرجة ممتازة. درس العلوم السلطانية في المكتب السلطاني التركي بحلب أيضًا حتى الصف الحادي عشر، ولما حدث الاحتلال بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تحولت المدرسة السلطانية إلى (مدرسة التجهيز) العربية فأكمل تحصيله فيها ونال شهادتها بدرجة ممتازة في ١٥ تموز سنة ١٩٢٠م، ثم دخل المعهد الطبي العربي بدمشق عام ١٩٢١ ودرس فيه ثلاث سنوات العلوم الفيزيائية والكيماوية والصيدلانية التي تدرَّس في فرع الصيدلة، وحاز لقب صيدلي (صف أول) بشهادة رسمية مؤرخة في ١ تشرين الأول ١٩٢٤، وأدّى الفحص الإجمالي في الصيدلة بنجاح باهر أمام اللجنة الفرنسية المرسلة رسميًا من قبل المفتش العام للصحة والإسعاف في المدرسة العليا، ونال إجازتها الرسمية في ٧ تشرين الثاني ١٩٢٤. ويحمل مصدقة من المعهد الطبي مؤرخة في ٤ تشرين الأول سنة ١٩٢٤ تشعر بدوامه سنتين مدرسيتين في مخبر الكيمياء في المعهد المذكور، وقيامه بجميع التحليلات والأعمال الواردة للمخبر، وبأهليته للقيام بالتحليلات الحيوية والكيماوية والصيدلانية.

ذهب لإكمال تحصيله العالي إلى باريس، وسجل في الصوربون بعد تقديمه طلبًا رسميًا لوزارة المعارف الفرنسية واستحصاله منها معادل البكالورية بقرار مجلس

الوزارة المذكورة المؤرخ في ١٨ تشرين الثاني ١٩٢٥. وحضر الدروس النظرية في الفيزياء والكيمياء وقام بالتطبيقات العملية المطلوبة في مخابرها مدة سنتين وحصل على مصدقتين بذلك. وأثناء ذلك سجل في معهد الصيدلة بباريس وداوم في مخبر العموم في مؤسسة الطب الشرعي وقام بأعمال وتحليلات شتى بطلب من مدير المخبر كوهن آبريست وإشرافه، وطبع نتيجة أعماله في الختام، وقدمها أطروحة باللغة الفرنسية بعنوان (تحري الآزوتات في الكيمياء الحيوية والسمية) إلى لجنة فاحصة في المعهد المذكور مؤلفة من الأستاذ (كربة) رئيسًا، وكل من الأستاذين (بوغو وداميمن) عضوًا. وبعد اجتياز المرافعة بنجاح منحته اللجنة لقب: (دكتور في الصيدلة) من جامعة باريس بدرجة ممتازة، بشهادة رسمية مؤرخة في ٦ حزيران ١٩٢٦. وفي أيلول من السنة نفسها قدم الأستاذ (دارسُنفال) إلى المحفل العلمي الفرنسي خلاصة عمله هذا والطريقة التي وضعها مع الأستاذ كوهن آبريست لتحري الآزوتات في الكيمياء الحيوية فحازت الاستحسان، ونشرت في مجلتها بعد جلستها المنعقدة في ٢٠ أيلول ١٩٢٦ في الصفحة ٥٢٢، ثم ذكرت الطريقة نفسها في كتاب الأستاذ كوهن آبريست الذي يدوَّن في مؤسسة الطب الشرعي المطبوع عام ١٩٣٤ في باريس ثم في ١٩٤٨ كما ذكرت في كتاب الطب الشرعي للأستاذ بلطزار. وكان لاكتشافه وجود الآزوتات في اللبن (لبن المرأة، لبن البقرة) المجهول إلى ذلك العهد صدى لدى بلدية باريس التي كانت تتحرى الغش في اللبن الوارد من القرى إلى باريس بكشف الآزوتات فيه زعمًا منها أن القروي يمذق اللبن بماء النهر الذي لا يخلو من الآزوتات. مع أن اللبن بالحالة الطبيعية يحتوي على مقدار طبيعي أكبر مما قد يوجد منه في الماء المضاف إلى اللبن بقصد المذق.

وبيده شهادة اختصاص في الكيمياء الحيوية من معهد الصيدلة بباريس

مؤرخة في ٢٤ حزيران ١٩٢٧ موقعة من الأستاذ الأحيائي (غريمبير) أستاذ الكيمياء الحيوية في معهد الصيدلة بباريس، ومعاونه (فلوري) وهو الآن أستاذ شرف للكيمياء الحيوية بعد بلوغه سن التقاعد.

بعد شهور مضت على عودته من باريس دخل المسابقة المعلنة في المعهد الطبي العربي بدمشق مساعدًا في مخبر الكيمياء بعد أن تقدم بأوراقه المؤهلة ونجح في المسابقة بدرجة ممتازة، وباشر العمل صبيحة تبليغه نجاحه في ١١ نيسان ١٩٢٨ في دار الجراثيم يعاون الأستاذ الجراثيمي الأستاذ أحمد حمدي الخياط طوال ثماني سنوات ونصف السنة حتى عام ١٩٣٦، وقام خلالها بجميع الأعمال المخبرية الخاصة بالتدريس وبالفحوص الواردة من المستشفى العام التابع للمعهد الطبي، وبيده مصدقة من رئاسة المعهد الطبي تشعر بذلك مؤرخة في ٢٤ تشرين الأول ١٩٣٦.

ويحمل إجازة من مديرية الصحة والإسعاف العامة بدمشق وقتئذ، لصنع مستحضر صيدلاني وبيعه وتصديره من نوع الحبابات الدوائية (هموجين الكواكبي – بولموكرين الكواكبي – إلخ) مؤرخة في ١٩٣٠.

وفي عام ١٩٣٧ رقّي لدرجة رئيس مخبر في المعهد الطبي. ولظروف لا مجال لذكرها لم ينفّذ المرسوم الجمهوري وإذ ذاك استدعته الحكومة العراقية بناء على اقتراح مديرية الصحة التابعة لوزارة الداخلية في الحكومة العراقية، أستاذًا لتدريس الكيمياء الحيوية والتحليلية في كلية الصيدلة الملكية العراقية ببغداد، فقام بها خير قيام في المدة (١٩٣٧– ١٩٤٠م) ثلاثة أشهر منها في وكالة عمادة الكلية. وقد كلفته كلية الطب في بغداد تدريس الكيمياء الحيوية لطلاب الصف الثاني بدلاً من الأستاذ الإنكليزي الذي انتهى عقده فأحسن القيام بما عهد إليه أيضًا. وقد وجهت وزارة الداخلية العراقية إليه رسالة شكر وتقدير رسمي لما وجدته فيه من

الإخلاص في العمل والتضحية، بكتابها المؤرخ في ١٩/ ٧/ ١٩٣٧ (رقم ١٥٩٣٦) مشفوعًا بشكر وتقدير مديرية الصحة العامة ببغداد بكتابها المؤرخ في ٣١/ ٧/ ١٩٣٧ (رقم ١٦١٠٢).

بعد انتهاء عقده الرسمي مع الحكومة العراقية آثر العودة إلى سورية ليؤدي خدمته نحو بلاده، ولم يكد يرجع إلى دمشق حتى أُعيد إلى وظيفته في المعهد الطبي وهي رئاسة المخبر عام ١٩٤٠، ثم لم يلبث أن تدرج بمراتب التدريس فأصبح (معلمًا مرشحًا) للصيدلة والكيمياء عام ١٩٤٣، وبلغ المرتبة الثانية عام ١٩٤٣، ثم عيّن أستاذًا لكرسي الصيدلة والكيمياء عام ١٩٤٧ من المرتبة الأولى فالمرتبة الممتازة في ٢١/ ١٠/ ١٩٥٨، ولبث فيها حتى ٣١ كانون الأول ١٩٦١ وهو تاريخ بلوغه سن التقاعد.

انتخب لعضوية المجمع العلمي العربي في ٧ كانون الأول ١٩٥٣.

يجيد اللغتين العربية والتركية تكلمًا وكتابة وإنشاء، ويحسن الفرنسية، ويلم بالإنكليزية.

كان يجهز في مخبره الخاص المرخص له به الحبيبات الدوائية التي نالت شهرة فائقة في الأقطار العربية لما يتمتع به من ثقة بين زملائه الأطباء والصيادلة من حيث إتقانه العمل، وحرصه على تحضير الجيد النافع من الحبابات. ولقد سد ثغرة كبيرة أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٧- ١٩٤٠) يوم فقدت من السوق التجارية بدمشق الحبابات الدوائية لأهم المواد الدوائية (أمتين، كينين، ستوفائين إلخ) إذ جهَّزها وقدَّمها بسعر التكلفة إلى مستشفى المعهد الطبي الذي تخرّج منه رحمة بالمرضى، فكان عمله هذا مشكورًا لدى رئاسة الجامعة السورية وعمادة كلية الطب ومديرية المستشفى. وقد عينته رئاسة الجامعة السورية آنذاك لعضوية لجنة اللوازم المستوردة من البلاد الأجنبية لوافر خبرته، وقدرت جهودهُ التي بذلها

بالإضافة إلى مشاق وظيفته الأصلية بهذا الشأن، ولِما كان لصندوق الجامعة السورية من هذه العقود من الربح وذلك بكتابها ٢٢/ ٩/ ١٩٤٨ (رقم ٢٢٠٩/ ٣٢٠١).

بقرار من المجلس الأعلى للمصالح المشتركة رقم ١٩٠ في ١١/ ١٠/ ١٩٤٤ كلف – مع الأستاذ توفيق المنجد والسيد جورج عريضة – ترجمة تعريفة المكوس وعدد أوضاعها (٩٩١)، وبعد عمل متواصل ستة أشهر قدمت إلى رئاسة المجلس المذكور نسخة بخطه طبعت في بيروت، ولا يزال يعمل بها في مصلحة المكوس (الجمارك).

من أعماله الفذة التي لم يسبقه إليها أحد كتابه (مصطلحات علمية) ويدل على مبلغ الجهود الكبيرة التي بذلها في الاشتقاق والنحت والتعريب والأوزان التي أدخلها إلى المصطلحات العلمية قياسًا ولبضع مئات من الكلمات العلمية الأجنبية، وقد وفق في أكثر مصطلحاته وأصاب، بدليل أن أصحاب أكثر المجلات الكيمياوية والعلمية والكليات في الأقطار العربية استعملوا مصطلحاته، وكان هذا وسيلة لشيوعها في العالم العربي. وقد ذكرها المستشرق (فنسان مونْتَمي) في كتابه (دراسات عربية وإسلامية. العربي الحديث) المطبوع بباريس ١٩٦٠ في أكثر صفحات هذا الكتاب ولا سيما الصفحة (١٤٩).

وقد نقل إلى العربية مع زميليه الأستاذين مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط (هؤلاء الثلاثة أعضاء لجنة المصطلحات العلمية في كلية الطب) معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات لواضعه كليرفيل الفرنسي بطلب من الدكتور المؤلف نفسه، وعدد كلماته (١٤٥٣٤)، وقد طُبع في مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥٦ (عدد صفحاته ٩٦٠ صفحة).

مؤلفاته:

(نفدت نسخها جميعًا).

١- الدروس الكيمياوية لتلاميذ المدارس الثانوية (٥ أجزاء لخمسة صفوف ١٩٢٨- ١٩٣٠).

٢- موجز في مبحث السموم (بالاشتراك مع الأستاذ الشامندي - ١٩٣٠).

٣- الحبات الدوائية (١٩٣٢).

٤- الحموضة والقلوية في نظرية الشوارد (١٩٣٣).

٥- صناعة حمض الليمون (١٩٣٤).

٦- السيمياء الحديثة (١٩٣٥).

٧- الدوتيريوم أو الهدرجين الثقيل (١٩٣٧).

٨- موجز في الكيمياء الحيوية —لطب الأسنان (١٩٣٧- ١٩٤٦- ١٩٥١).

٩- الحيوينات - الفيتامينات (١٩٣٧).

١٠-موجز في الكيمياء الحيوية الطبية العلمية (٧ أجزاء - ١٩٣٨ وفق برنامج كلية الصيدلة ببغداد).

١١-التطبيقات العملية للكيمياء الحيوية (١٩٣٩) وفق برنامج كلية الصيدلة ببغداد.

١٢- الحاثات - الهرمونات (١٩٤١).

١٣- الكيمياء العضوية (١٩٤٧).

١٤- التطبيقات العملية للكيمياء التحليلية (١٩٤٨- ١٩٥٥- ١٩٦٠).

١٥- الكيمياء الحيوية (١٩٤٩- ١٩٥٤- ١٩٥٩).

١٦- التطبيقات العملية للكيمياء الحيوية، وفق برنامج فرع الصيدلة، كلية الطب، دمشق (١٩٥٠).

١٧- النظائر في الكيمياء الحيوية (١٩٥١).

١٨- موجز في الكيمياء العضوية، لطب الأسنان (١٩٥١).

١٩- علم السموم (١٩٥٣- ١٩٥٦).

٢٠- معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات - مع الأستاذين خاطر والخياط (١٩٥٦).

٢١- مصطلحات علمية – الطبعة الثامنة (١٩٥٩).

ما نشر في مجلة المعهد الطبي العربي: صناعة السكَّر - صناعة الورق - أحاديث اليوم عن عجائب الراديوم.

ملاحظة : رواية عبد الحميد وشرلوك هولمز (٤) أجزاء ترجمها عن التركية عام ١٩١٨ وطبعت بمطبعة النهضة بحلب عام ١٩١٩ وما بعد.